وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الإصلاح بالإسلام

د. محمد عمارة

في مواجهة النموذج التحديثي الغربي ، الذي وفد إلى بلادنا في القرن التاسع عشر وقفت مدرسة الإحياء والتجديد الديني تدافع عن مرجعية الإسلام في مشروعنا النهضوي، فكتب جمال الدين الأفغاني تقول " إن الدين هو قوام الأمم ، وبه فلاحها ، وفيه سر سعادتها ، وعليه مدارها .. وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان .. وإنا معشر المسلمين ، إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا ، فلا خير لنا فيه ، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق ، وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة " من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن " هو عين التقهقر والانحطاط ؛ لأننا في تمدنا هذا مقلدون للأمم الأوربية ، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب والاستكانة لهم والرضا بسلطانهم علينا ، وبذلك تتحول صبغة الإسلام ، التي من شأنها رفع راية السلطة والغلبة إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي ..

لقد بدأ الخلل والهبوط – في حال الأمة – من طرح أصول الدين ، ونبذها ظهرياً .. والعلاج إنما يكون برجوع الأمة إلى قواعد دينها ، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته .. ولا سبيل لليأس والقنوط ، فإن الدين متأصل في النفوس ، والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفي من محبته ، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت .. فإذا قاموا ، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم ، فلا يعجزهم أن يبلغوا منتهى الكمال الإنساني . ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططاً ، ولن يزيدها إلا نحساً ، ولن يكسبها إلا تعساً " .

وفي ذات المعنى – معنى أن الإسلام هو الحل ، وهو السبيل الوحيد للإصلاح يقول الإمام محمد عبده : " إن البذرة لا تنبت في أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ، ويتنفس بهوائها ، وإلا ماتت البذرة ، بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها ، ولا على البذرة وصحتها ، وإنما العيب على الباذر ، ولقد أشربت أنفس الأمة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الانقياد إلى الدين ، حتى صار طبعاً فيها ، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التي أودعها فيها ، فلا ينبت ويضيع تعبه ، ويخفق سعيه ، وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية — من عهد محمد علي إلى اليوم — فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فساداً — وإن قيل أن لهم شيئاً من المعلومات — فما لم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم .

إن سبيل الدين ، لمريد الإصلاح في المسلمين ، سبيل لا مندوحة عنها ، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين ، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شئ ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً ، وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق ، وصلاح الأعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة فيه بما ليس لهم من غيره ، وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام به فلِمَ العدول عنه إلى غيره " ؟!

تلك هي نصوص الأفغاني ومحمد عبده الداعية إلى الحل الإسلامي ، وطريق النهوض بالإسلام وتجديد دين الإسلام لتتجدد به — لا بغيره — دنيا المسلمين .

الإصلاح بالإسلام 2

في مواجهة الاستلاب الحضاري , والتغريب للثقافة ومشروع النهضة , دعا جمال الدين الأفغاني [1254- 1314 هـ 1838-1897 م] إلى إسلامية المشروع النهضوي , وإلى الإصلاح بالإسلام لأن استقلال الهوية والفكر والثقافة وتميزها هو الشرط الأول لاستقلال الوطن والأمة استقلالاً حقيقيا .. ولقد كتب الأفغاني عن إسلامية مشروع النهضة والإصلاح فقال :

" إن الدين هو قوام الأمم , وبه فلاحها , وفيه سر سعادتها , وعليه مدارها .. وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان .. إنه أساس النظام الاجتماعي , ولم يستحكم أساس للتمدن بدون الدين البتة .. وإنا معشر المسلمين , إذا لم يؤسس نهوضنا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير فيه , ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا أي عن هذا الطريق..

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا [من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن] هو عين التقهقر والانحطاط لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوروبية , وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب , والاستكانة لهم , والرضا بسلطانهم علينا , وبذلك تتحول صبغة الإسلام التي من شأنها رفع راية السلطة و الغلب , إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي .

وإن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها .. والتمدن الغربي هو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني... ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة , المنتحلين أطواراً غيرها , يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها , وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون لهم الأبواب , ثم يثبتون أقدامهم .

وإن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها أباء الشرقيين و أسلافهم ولا ضرورة في إيجاد المنعة إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى , ولا ملجئ للشرقي في بدايته أن يقف موقف الأوربي في نهايته , بل ليس له أن يطلب ذلك , وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وقراً – (أي أثقلها ثقلاً) – وأعجزها وأعوزها".

هكذا تحدث جمال الدين الأفغاني عن ضرورة إسلامية مشروع النهضة ومنهاج الإصلاح .

- فالدين الإسلامي هو السبب المفرد لسعادة الإنسان ..
- والدين هو قوام الأمم , وسبب فلاحها وسر سعادتها ..
- والدين هو الأساس الأول للنظام الاجتماعي .. وبدونه لن يتأسس تمدن حقيقي ..
- وما يسمى بالتحديث على النمط الغربي هو عين التقهقر والانحطاط ..

وأخطر ثمرات التقليد للغرب هو الإعجاب به , الأمر الذي يفتح الباب لاستعماره , ويُفقد المقلدين المتغربين الاعتزاز بسلطان الإسلام وغلبته , فيتحولون إلى عملاء حضاريين.. ثم سياسيين يفتحون الأبواب للغزاة , ثم يثبتون أقدام هؤلاء الغزاة .. بل أن بعض هؤلاء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المتغربين المقلدين للغرب يعودون إلى أوطانهم على ظهور دبابات الغزو لهذه الأوطان .. لذلك , فنحن محتاجون إلى إعادة قراءة الأفغاني من جديد !.

الإصلاح بالإسلام 3

عندما كتب جمال الدين الأفغاني [1254- 1314 هـ 1838 – 1897] عن ضرورة تأسيس نهضتنا الحديثة على الإسلام ، لأن الدين –كما قال – " هو السبب المفرد لسعادة الإنسان , وهو قوام الأمم , وبه فلاحها , وفيه سر سعادتها .. " ..

كان هناك من يتشكك ويشكك في إمكانية وقدرة الإسلام على أن يكون مصدر النهضة الحديثة ,, ولهؤلاء المتشككين كتب جمال الدين الأفغاني فقال :

" إنني أرسل فكري إلى نشأة الأمة التي خملت بعد نباهة .. وأطلب أسباب نهوضها الأول .. إنه : دين قويم الأصول , محكم القواعد شامل لأنواع الحكم , باعث على الألفة, داعٍ إلى المحبة , مزك للنفوس ,مطهر للقلوب من أدران الخسائس , منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه , كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان في مباني الاجتماعات البشرية , وحافظ وجودها , ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية ..

فإن كانت هذه شرعة الأمة , ولها وردت , وعنها صدرت , فما تراه من عارض خللها , وهبوط عن مكانتها , إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً , ففلاحها الناجح إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها , والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته ..

ومن يعجب من قولي :- إن الأصول الدينية الحقة تنشئ للأمم قوة الاتحاد , وائتلاف الشمل , وتفضيل الشرف على لذة الحياة . وتبعثها على اقتناء الفضائل , وتوسيع دائرة المعارف , وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية , ومن يعجب من قولي هذا , فإن عجبي من عجبه أشد .. ودونك تاريخ الأمة العربية .. وما كانت عليه قبل الإسلام من الهمجية.. حتى جاءها الدين فوحدها , وقواها ونور عقلها وقوم أخلاقها وسدد أحكامها, فسادت العالم .

ولا سبيل لليأس والقنوط من العودة إلى هذا الطريق , فإن جراثيم الدين متأصلة في النفوس , والقلوب مطمئنة إليه , وفي زواياها نور خفي من محبته , فلا يحتاج القائم بإحياء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت , فإذا قاموا , وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم , فلا يعجزهم أن يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الإنساني ..

هكذا تحدث جمال الأفغاني إلى المقلدين المتغربين في القرن التاسع عشر الميلادي – ومنذ ذلك التاريخ جرب المتغربون في بلادنا – من " أبناء بونابرت " ! – كل ألوان التحديث الغربي , فلم يزيدوا الأمة إلا " نحساً وتعساً وشططاً " – كما قال الأفغاني – ..

ومازلنا نحن – في القرن الواحد و العشرين – نلح على هؤلاء المتغربين المقلدين للتحديث الغربي , والدعيين إلى اللحاق والالتحاق بالغرب – مازلنا نلح عليهم كي يميزوا بين " التفاعل " الحضاري , وبين " التبعية .. والتقليد " فهل يعيدون قراءة نصوص الأفعاني من جديد ؟! .. وهل يثوبون إلى رشدهم , فيقلعون عن التقليد للغريب ؟!.

This file was downloaded from QuranicThought.com